مرجعيات المكان وتشكيلاته الدلالية في الشعر العربي في السنغال

دراسة في قصائد المنفى للشيخ أحمد بمب

Place Reference and Their Semantic Formation in Arabic Poetry in Senegal: A Study of Cheikh Ahmadou Bamba's Exile Poetry

د. تياروي غاي*

جامعة الشيخ أحمد بمب (السنغال)

thiaroyegaye@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2026/05/19	تاريخ: القبول: 2026/05/30	تاريخ النشر: 2026/06/30

الملخص: يسعى هذا البحث إلى دراسة مرجعيات المكان وتشكيلاته الدلالية في قصائد المنفى للشيخ أحمد بمب، ويهدف إلى اتخاذ نماذجه الشعرية عيناتٍ لاستقصاء الأبعاد المكانية بمختلف تجلياتها، من حيث أنواعها، ومقولاتها الظاهرة وأنساقها المضمرة، تلك الأبعاد التي تنحصر في نمطين من الأمكنة، وهي: **الأمكنة المعادية**، وتتمثل في أماكن المنفى، وما يتبعها من أهوال البحر والبر، و**الأمكنة الأثيرة (المكان اليوتوبي)**، وتتمثل في الأماكن التي يحنُّ إليها الشاعر، مثل: طوبى، دار السلام، ومكة والمدينة.

كلمات مفتاحية: الشيخ أحمد بمب، طوبى، المنفى، الاغتراب، مرجعيات المكان.

Abstract : This research seeks to examine spatial references and their semantic formations in the poetry of Sheikh Ahmad Bamba. It aims to take his poetic models as samples for investigating spatial dimensions in their various manifestations in terms of their types, explicit categories, and implicit patterns. These dimensions are

confined to two types of places: hostile places, represented by the places of exile along with the accompanying ordeals of sea and land; and cherished places, represented by the locations the poet yearns for, such as Touba, Dar al-Salam, Mecca, and Medina.

Keywords: Sheikh Ahmad Bamba, Exile, Alienation, Spatial References.

1.مقدمة:

يُعد المكان المدخل الأكثر قربا الذي يعتمد عليه المبدع لتأسيس رؤيته الفنية بطابعها الإنساني، فالرؤية تنبثق من المكان وتتنامى لتكون مشهدا حيا في كثير من الأحيان.

ولا يمكن أن يكون المكان مؤثرا من دون أن يصهر فيه الإنسانُ مشاعره وكل ما في ذاته من انفعالات وبصورة متبادلة، أي: كأن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة جدلية، بالمعنى التأثيري المتلازم، فالشاعر "لصيق بالمكان وابن شرعي لأحواله، وهو في ذلك لا يستطيع أن يغيب الإلحاح المكاني في عمله"[1].

فالأمكنة ليست رقعا جغرافية مجردة في حدودها، ولكنها عناوين تختزل مشاهد تاريخ المشاعر المتشكل من الغربة والقلق وصراع الهموم في داخل الشاعر، وبالتالي فإن النتاج الوجداني للشاعر ليس إلا إعادة خَلق لتجاربه ضمن أطر زمانية ومكانية تمكنه من تحديد أبعاد تجربته ومنحها الحيز الذي تشكلت فيه، وبذلك تتضح العلاقة ما بين المكان وتجربة الشاعر بوصفها تجربة إنسانية.

والإشكالية المركزية لهذا البحث تتحدد في الأسئلة التالية: كيف تتشكل مرجعيات المكان ودلالته في الشعر العربي بالسنغال من خلال التجربة الشعرية للشيخ أحمد بمب؟ وما هي الخصوصية الثقافية والروحية التي يكتسبها المكان في هذا الشعر؟ كيف يتحول المكان من جغرافيا واقعية إلى فضاء رمزي وروحي؟

وتمشيا مع طبيعة البحث، سيتناول الباحث المنهج الوصفي التحليلي؛ لوصف الظواهر المكانية في شعر الشيخ أحمد بمب، وتصنيفها حسب طبيعتها (واقعية/ رمزية)، مع تحليل الخصائص الأسلوبية لتوظيف المكان.

2. البعد المفهومي للمكان:

كون لفظة (المكان) عتبة لهذا البحث، يستوجب علينا إيضاح مدلولاته اللغوية التي استقرت عليها، ثم تناول البعد الاصطلاحي الذي أضفى عليها الثبات النسبي، وأكسبها أحقية العلمية في الدراسات التي اتخذتها منهجا يعبر عليه للوقوف على تأثير البيئة بتعدد أنماطها وتلون مواقعها.

1.2 البعد اللغوي:

ذكر ابن منظور في اللسان مفهومين لكلمة (مكان)، أولهما أنه جاء تحت مادة "كون" أن "الكون هو الحدث، وقد كان كونًا وكينونة، والمكان الموضع، والجمع أمكنة، توهموا الميم أصلا حتى قالوا تمكن في المكان"[2]. وثانيهما أنها جاءت من مادة "مكن" فقال: "والمكان: الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع"[3].

ويؤكد الفيروز آبادي أن المكان "الموضع والجمع أمكنة"[4]، وأضاف الزبيدي في تاج العروس "والمكان هو الموضع المحاذي للشيء"[5]، وفي المعجم الوسيط "المكان: المنزلة، يقال هو رفيع المكان والموضع، والجمع أمكنة، و(المكانة) المكان بمعنييه السابقين"[6]، وفي التنزيل: (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم)[7]، أي: موضعهم.

ونجد في المعنى اللغوي مزاوجةً بين الدلالة على معنيين؛ الأول: الموضع، والثاني: المنزلة، ونلاحظ أن المعنى اللغوي يعبِّر عن المكان بمفهوم الموضع في معناه الحقيقي، والمعنى المجازي المنزلة التي تدل على قيمة الإنسان.

2.2 البعد الاصطلاحي:

أما بخصوص المفهوم الاصطلاحي للمكان، فإنه يتباين حسب الحقل الذي أُستُعمل فيه، وحسب الجهة التي تضع مفهومها للمكان وطريقة تصويرها في ميدان المعرفة الخاص بها،

فقد "شغل مفهوم المكان علماء الفلسفة قديما وحديثا، ففي الفكر الفلسفي القديم ظهر أفلاطون الذي اعتبر المكان غير حقيقي، وهو الحاوي للموجودات، وكل التغير والحركة في العالم المحسوس، عالم الظواهر غير الحقيقي"[8].

ويدرس أرسطو المكان من زاوية العلاقة والارتباط بالأشياء التي يحويها، فالمكان يختلف عما يحويه وهو "الحاوي الأول وليس جزءا من الشيء؛ لأنه مساوٍ للشيء المحوي وفيه الأعلى والأسفل"[9].

ما سبق يؤكد اهتمام الإغريقيين القدامى بالمكان؛ الذي يعني بدوره شعور الفعل الإنساني منذ أمد بعيد بأهمية المكان، فهو الحاوي لحركة الإنسان، وأحداث حياته.

أما المكان هندسيا فهو "وسط غير محدود يشتمل على الأشياء، فهو متصل ومتجانس لا تميز بين أجزائه، وذو أبعاد ثلاثة: الطول والعرض والارتفاع... وإذا جمع بين الزمان والمكان في تصور واحد نشأن عنهما مفهوم جديد هو المكان الزماني، وله أربعة أبعاد هي: الطول والعرض والارتفاع والزمان"[10].

وعند تنزيل المصطلح في الحقل الأدبي، نجد أن المكان عنصر فعال في الأدب؛ فهو يؤثر بشكل مباشر في تكوين مفاهيم الإنسان لكل ما يحيط به، حيث يرى لُوتْمَان أنه "نتيجة محاولة الإنسان تجسيد المجردات إلى ملموسات ومحسوسات، وإخضاعه للعلاقات الإنسانية، والنظم لإحداثيات المكان، ثم إضفاؤه عليها، عن طريق اللغة على المنظومات الذهنية"[11]. ويركز اهتمام الأديب على إبراز المكان كحاضن لأحداث العمل الأدبي الذي ينتج فيه المكان كنسق تعبيري يصف ويتغلغل في تكوين الدلالة الأدبية للمكان؛ ليؤسس منطلقا للبحث في العمل الأدبي بالنسبة للمتلقين، وعلى الأديب أن يصنع المكان في عمله الإبداعي بصورة ذكية بحيث إن هذه الصنعة لا تطابق الواقع مطابقة حرفية بل هي تشحن الواقع شحنات مختلفة من المشاعر والأجواء النفسية.

ويظهر أهمية المكان الواقعي في تصوير التجارب الإنسانية وتحولاته داخل النفس، فيؤثر البعد النفسي الواقعي في تشكلات المكان، كما يؤثر التصوير المتخيل على القضايا التي

يعالجها النص، كما تبرز الأهمية في قدرة النص على توظيف المكان بحيث "يُنقل من الواقع إلى الشعرية، ومن نطاق اللغة العادية إلى نطاق اللغة الشعرية، فيتحول من صياغات النثر إلى صياغات الشعر، وهذه الصياغات تكسبه خاصية النوع الجديد"[12]، إذا لكي يصبح المكان مؤثرا وفاعلا في العمل الفني يجب أن يكون دلالة يحاكي شيئا ما في نفس الشاعر أو الكاتب أو في الذات الاجتماعية. وقد أكد باشلار على أهمية المكان وجعله عنصرا أساسيا لإنجاح العمل الإبداعي، حين قال: "العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"[13]

3. الأبعاد الدلالية للمكان في شعر الشيخ أحمد بمب:

المميز للمكان في شعر الشيخ أحمد بمب، هو الضدية المتمثلة بوجود مكانين في قصائده؛ المكان **الأول** الواقع الذي تعيشه الشخصية، و**الثاني** هو المكان الحلم الذي تطمح إليه، وهذا التناقض بين المكانين يحمل الشخصية على صراع يتمثل في النفور من المكان الواقع والرغبة والحنين إلى المكان الحلم. لذا اتخذ المكان عند الشيخ أحمد بمب مرجعيات دلالية ثلاث:

1.3 الأمكنة المعادية (المنفى/ الاغتراب):

فالأمكنة المعادية هي التي تصعِّد القلقَ الوجودي وهواجس الخوف من المجهول، افتقارا للألفة التي يعد طاردا لقيَمها، إن هذه الأمكنة "إما أن يقيم فيها الإنسان مرغما.. أو أن خطر الموت يكمن فيها لسبب أو لآخر"[14]، فسيرورة الأحداث الخارجية وتموجات الباطن النفسي في هذه الأمكنة تنحو منحى عشوائيا، يُصعِّد عند الإنسان فاعلية الارتباك والتشويش والإدراكي، ونستحضر هنا عبارة كُولِنْ وِلْسُونْ لفهم بنية التمأزق التي تترسخ فيها نفسيا فور انخراطنا في تجربة المكان المعاني، حين قال: "كلما زاد التشويش في المكان زاد شعور المرء بأنه لا فائدة من عمل شيء، وهنا تواجهنا حلقة شريرة أو سلم حلزوني، حيث تؤدي الفوضى إلى إرهاق الإرادة، ويؤدي إرهاق الإرادة إلى فوضى أكثر"[15].

وهذا الارتباك الإدراكي النفسي، نلاحظه حاضرا في ثنايا قصائد الشيخ أحمد بمب، وهو يتلوَّى تحت لوعة المَحبَس بيد المستعمر، فنجده يقول:

إِذَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ اَلْمَبِيتَا وذَلكَ الأَمِيرَ وَالثُّبُوتَا

طَارَتْ إِلَى الجِهَادِ بِالأَرْمَاحِ نَفْسِي لَكِن ذَبَّ عَنِّي المَاحِي[16]

باعتبار المساحة النفسية لهذا المكان، فإنه يبدو على نحو عام ذا مساحة نفسية ضيقة؛ إذ تنطبق أبعاده النفسية حول الذات خانقة مقولة الوجود ومصادرة هبات الحرية، من خلال الاستجابة السلبية للمكان، فالمكان المعادي على هذا النحو يتخذ شخصية السجن أو القبر.

2.3 ثنائية البر والبحر رمزا للمعاناة والاغتراب:

يعرّف بعضهم الاغتراب: "بأنه عملية حركية تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالا وثيقا؛ فالمرحلة الأولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي، ويتدخل وعي الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية، أما المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه إنسانا مغتربا على وفق الخيارات المتاحة أمامه"[17]. وغربة الشيخ أحمد بمب لا تخرج عن نطاق المراحل المذكورة، فقد ربطت المؤسسةُ السياسيةُ القائمة آنذاك السنغال بعجلة الاستعمار، وكان على الشاعر أن يدخل معركة الحرية والمقاومة ضد القوى والمؤسسات الاستعمارية الحاكمة، ولانعدام تكافؤ قوى الصراع، فقد الشاعر نفسه غريبا في محيطٍ قاسٍ، بعد أن وعى المأساة، وكافح من أجل الخلاص، ومن هنا فقد تشكل في داخله رد الفعل المناسب على وفق قدرته ووعيه، متزوّدا بقوة الإيمان والتوكل رغم وعورة الطريق ودوي البحار:

بَايَعْتُهُ فِي البَحْرِ تَحْتَ الشَّجَرَهْ والبَحْرُ مُزْبِدٌ وَحَوْلِي فَجَرَهْ

فصدق الإيمان والتوكل التام خففا عنه عناء الغربة، وقسوة المكان، مما أكسب له مخرجا؛ إذ سخر الله له أناسا صالحين، حين رسَّت سفينةُ الاغتراب في بر الأمان، ومن ذلك يقول مقابلا للبيت أعلاه:

بَايَعْتُهُ فِي البَرّ تَحْتَ الشَّجَرَهْ وَالبَرُّ طَيِّبٌ وَحَوْلِي بَرَرَهْ

ومن هنا يتضح أن تلقي المكان يتميز بطابع نسبي؛ فطبيعة الاستجابة النفسية للمكان متفاوتة تفاوت الفروق الفردية بين بني البشر، وإنما ما يبدو معاديا ضارًا من الأمكنة لدى أحدنا، قد لا يبدو كذلك بالضرورة لدى الآخر، حال الشيخ أحمد بمب الذي قلَّب المكان المعادي إلى آلة للترقي الروحي والإيماني، ممتطيا جواد التوكل، وهذا ما عبَّر عنه في قوله:

أَلَا إِنَّنِي أُثْنِي عَلَى خَيْرِ مُنْعِمِ وَلَا أَشْتَكِي لِلْخَلْقِ مِنْ فَقْدِ أَنْعُمِ

فَمَنْ ظَنَّنِي فِي غُرْبَتِي ذَا تَذَلُّلٍ إِلَى غَيْرِ مُغْنٍ وَاسِعٍ فَهْوَ قَدْ عَمِ

لَهُ أَشْتَكِي ضُعْفِي وَفَقْرِي وَغُرْبَتِي وَأَرْجُو رُجُوعِي عَاجِلًا خَيْرَ مُنْعِمِ[18]

وهذا التوكل جلب له الفرج من الله الكريم:

نَجَوْتُ بِحِفْظِ اللهِ مِنْ سَطْوَةِ وَلِي رَاضَهُمْ طُرًّا وَلِي كَرَّمَ الجَنْبَا

أَغَاثَنِيَ الحَنَّانُ مِنْ كَيْدِ مَنْ قَلَى وَصَارَ كَنَارِ الخِلِّ لِي بَحْرُ مَا يُمْبَا[19]

من هنا ندرك أن المكان لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي، إنما يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني حافرا أخاديد غائرة في مستويات الذات النفسية والدينية والاجتماعية.

لذا فإن قسوة المكان لم يمنع الشيخ أحمد بمب من إحضار ذاته الدينية، وتأكيد وحدانية الخالق، وذا يؤكد أن علاقة الهول المكاني بالشخصية المغتربة علاقة طردية؛ كلما كان التعلق بالقوة القاهر الأكبر، كان الهول أضعف وأقل أثرا في قلب المغترب المُبْتَلى، لأن لذة الألم في سبيل التوجه الخالص إلى الله والثبات في المبدأ، أكبر من الألم نفسه، وبذلك يتلاشى كل ما من شأنه أن ينغِّص صفو المكان، وقد أكد ذلك في قوله، وهو يصافح أهوال الاغتراب في "الغابون":

رَضِيتُ عَنِ المَوْلَى تَعَالَى الَّذِي رَبَّى فُؤَادِي وَأَغْنَانِي وَأَكْرِمْ بِهِ رَبَّا

بِهِ قَدْ غَنِيتُ اليَوْمَ عَبْدًا لَهُ بِهِ خَدِيمًا دَوَامًا لِلَّذِي اخْتَارَهُ حِبَّا

إلى أن قال:

رَضِيتُ بِهِ رَبًّا كَرِيمًا مُكَرِّمًا وَقَانِي العِدَى وَالحَرْبَ وَالبَحْرَ وَالتِّلْبَا[20]

فلم تعتريه وساس الشيطان، التي غالبا ما تُزعزع مبادئ الإنسان في حالة الخوف والاضطراب والرغبة في بقاء الحياة، ورأى أن الشيطان نحا دون سبيله وهو في أمرّ المنازل (جزيرة مايمبا):

لِرَبِّ غَفُورٍ قَدْ مَحَا عَنِّيَ الذَّنْبَا وَعَنِّي نَفَى إِبْلِيسَ فِي بَحْرِ مَا يُمْبَا

بِرَبِّي أَعُوذُ الدَّهْرَ مِنْ مَكْرِهِ وَمِنْ جَمِيعِ الأَعَادِي نِعْمَ رَبُّ الوَرَى رَبَّا

إِلَهِي اكْفِنِي إِبْلِيسَ وَاحْبِسْهُ سَرْمَدًا وَهَبْ لِي دَوَامَ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالْحُبَّا

إِلَهِي احْبِسِ الأَعْدَاءَ عَنِّي وَنَجِّنِي مِنَ الكُفْرِ وَالكُفْرَانِ وَلْتَكْفِنِي سَلْبَا[21]

هنا رأى نفسَه في تصادم بالواقع المكاني الذي هو فيه؛ بأنه غريب منعزِلٌ وسط الأمكنة المغلقة؛ بين ضغط الأعداء وسطوتهم، وبين وساوس الشيطان القائدة إلى نبذ المبادئ، فأصبح هذا الواقع في نظر الشاعر واقعا يعكس توتره الوجودي، وتلك هي الغربة الوجودية بمعناها العميق، لأنها إحساس بالوحدة الذاتية المطلقة التي يحميها الإنسان في داخل نفسه أينما حل، فالوطن (المكان) المادي لا معنى له إذا قيس بالوطن الروحي التي تقطنه نفسُ الشاعر، وبتعزيز هذا الوطن الروحي المقدس، تمكن الشاعر من الانفلات من حصار الظُّلمَتَين (سطو العدو، و وساوس الشيطان)، وذلك بادي في قوله:

نَجَوْتُ بِحِفْظِ اللهِ مِنْ سَطْوَةِ وَلِي رَاضَهُمْ طُرًّا وَلِي كَرَّمَ الجَنْبَا

أَغَاثَنِيَ الحَنَّانُ مِنْ كَيْدِ مَنْ قَلَى وَصَارَ كَنَارِ الخِلِّ لِي بَحْرُ مَا يُمْبَا[22]

وفي قوله:

أَيَسَ مِنِّي اللهُ عِنْدَ "جِيوَلِ" إِبْلِيسَ إِذْ نَادَيْتُهُ بِيَاوَلِي[23]

يتضح مما سبق، أن المكان المعادي يخلق في الإنسان الاغتراب الذي يتشكل من العناصر الآتية:

- معاناة إنسانية: أي أن الاغتراب ليس إلا معاناة داخلية بالنسبة للإنسان، سواء كانت معاناة اجتماعية، أو روحية.
- الإنفصال عن عالمه: ونتيجة لهذا الإحساس الداخلي يشعر الإنسان بالضياع.
- فقدان السيطرة: إذ يفقد المغترب سيطرته على تلك الحالات الاجتماعية والنفسية التي يمر بها.

3.3 الأمكنة الأثيرة (المكان اليوتوبي):

الأمكنة الأثيرة هي التي يحنُّ إليها الشاعر، الحيز الممتزج بالنفس، المشبع بقيمة الأثرة، على نحو يمكن القول بأننا لا نعيش تجربة الأمكنة الأثيرة فحسب، بل أن الأمكنة الأثيرة تعيش فينا، فهي تمد الذات بالطمأنينة ويصعد فيها مشاعر الاحتواء والحماية، وتتخذ هذه الأمكنة الأثيرة صفة البيت، فهي تمثل في اللاشعور الجمعي تنويعات مكانية على قيمة المأوى، وتعزز من قيمة الانتماء بوصفها المنطقة الأصيلة الأولى التي تستمد منه الذات ملامحها وقدرتها على الاستمرار والرسوخ في الزمان الوجودي.

ولهذا الانتماء النفسي حنَّ الشعراء إلى مواطنهم الأصلية، وإلى المرابع المقدسة، وتتمثل هذه الأمكنة الأثيرة في:

1.3.3 المكان/ الوطن:

فالشاعر بوطأة الغربة وقسوة المعاملة، لم ير ملجأ أكثر أمناً من وطنه/ الأصل، لذا كانت قسماتُ حنينه بادية في ثنايا قصائده في أرض الغربة، وقد عبر عن ذلك في قول:

يَسِّرْ رُجُوعِي لِطُوبَى وَاحْمِنِي وَقِنِي أَذَى الوَرَى وَلْتُطِبْ لِي ثَمَّ إِسْكَانَا

اجْعَلْ رُجُوعِي إِلَى قَوْمِي سَعَادَتَنَا وَلْتَكْفِنَا يَوْمَ جَمْعِ الخَلْقِ نِيرَانَا[24]

وقوله:

وَلِي اجْعَلِ العَوْدَ لِأَهْلِي أَحْمَدَا وَصَلِّيَنْ عَلَى الحَبِيبِ أَحْمَدَا[25]

فكان أمله الأكبر هو الرجوع إلى الوطن والأهل حيث الاستقرار والطمأنينة النفسية والروحية، لذا كان (طوبى) و (دار السلام) حاضرَين بشكل كثيف في قصائده الاغترابية، باعتبارهما المنتج والوعاء الحامل لأنموذج رسالته الإصلاحية، لذا تكرر حنينه إليهما:

إِلَهِي إِلَى طُوبَى قُدْنِي وَسَلِّمَنْ وَجُدْ بِامْتِنَانٍ ثُمَّ وَلْتُومِنِ التُّرْبَا

لَكَ البَرُّ وَالبَحْرُ الذِي قُدْتَنِي لَهُ فِي البَرِّ هَبْ لِي الأَمْنَ وَلْتُكْرِمِ الجَنْبَا

قُلُوبَ العِدَى قَلِّبْ إِلَى مَا يَسُرُنِي وَبِي بَشِرِ الأَخْيَارَ وَلْتَغْفِرِ الذَّنْبَا

رَجَوْتُ فِرَاقِي سَرْمَدًا جُمْلَةَ العِدَى وَلُقْيَى عِيَالِي مِنْكَ يَا مَنْ قَضَى الأَرَبَا[26]

وقوله في الحنين إلى طوبى ودار السلام:

وَعَجِّلْ خُرُوجِي مِنْ عُيُوبِي جَمِيعِهَا وَقُدْنِي إِلَى طُوبَى وَعَنْهَا اصْرِفِ الجَدْبَا

إِلَهِي إِلَى دَارِ السَّلاَمِ التِي بِهَا أُنَاجِيكَ قُدْنِي عَاجِلًا وَاكْفِنِي حَرْبَا[27]

فأصبح الوطن مَشعلا للهناء، بعد الغربة التي غلفت جنباته بالحزن، بابتعاده عن الوطن الذي تعارف فيه، ونبت فيه إحساسه لأنه المكان الفعلي والذي هو "حسن أصيل عميق في الوجدان البشري، وخصوصا إذا كان المكان هو الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط والمشيمي برحم الأرض- الأم- ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا"[28].

والصورة التي قدمها الشاعر في الأبيات أعلاه تجسد **الارتباط الروحي** بين الشاعر والمكان، لأن "الذات تتفاعل مع أماكن السكن الموحية بدلالة العزة والشرف والحماية وخصيصة الأصالة والكرامة والمتعة والإباء"[29].

وقد شكلت الهوية لدى الشاعر الشيخ أحمد بمب نوعا من الانتماء يحاول فيه تأسيس مبدأ الهوية في الحيز الجغرافي الذي يعيش فيه، حيث الارتباط العميق والانتماء للأهل والعشيرة، ومن هنا فإن العلاقة الإنسانية بالمكان في شعر الشيخ أحمد بمب هي علاقة متجذرة وراسخة في ذاته البشرية الباحثة عن مبدأ الهوية، لذا كان **اليُاءُ الانتمائِي** (ياء المتكلم) حاضرا في بنية قصائده الحنينية: (أهلي، قومي، عيالي...).

2.3.3 المكان الإنتمائي الروحي (المقدَّس):

إن كان الشاعر قد حن إلى الوطن والأهل بدافع الانتماء النفسي والاجتماعي، فإنه حن كذلك إلى أمكنة يربطه الرباط الروحي القدسي بهذه الأمكنة، فكان البُعد الديني أساسا في ورود هذه الأمكنة في ثنايا قصائده، فحن إليها، وتأججت تباريح شوقه إلى زيارتها، وهذا حال الكثير من الشعراء السنغاليين، الذي حنوا إلى أماكن بدافع الروابط الانتمائية الروحية، كما نجد ذلك عند كل من الشاعرين الخليفة محمد نياس، والشيخ إبراهيم جوب المشعري، حيث حنَّ الأول إلى (فاس) بدافع الانتماء التجاني، وحن الثاني إلى (جلف) بالانتماء المريدي، فيقول الخليفة الحاج محمد نياس:

نَفْسِي إِلَى ذِكْرِ فَاسٍ ذَاتُ وَسْوَاسِ ثَوَتْ بِفَاسٍ كَمَثْوَى الشَّيْخِ فِي فَاسِ

تِلْكَ المَعَاهِدُ لَا يُنْسِيكَ سَاكِنُهَا عَيْنَ الخَوَاذِلِ بَيْنَ الوَرْدِ وَالآسِ

فَعِنْدَهَا تُرْبَةُ الخَتْمِ الذِي لَهُ الرِّقَابُ وَيَحْذَى قِمَّةَ الرَاسِ[30]

ويقابله المشعري بقول:

مَا لِي لِبَغْدَادَ شَوْقٌ لَا وَلَا فَاسِ لَكِنْ بِرُؤْيَا جُلُفْ قَدْ بِعْتُ أَنْفَاسِي

حَيْثُ الخَدِيمُ ثَوَى حَيْثُ المُرِيدُ حَوَى سِرًّا يُطَهِّرُهُ مِنْ كُلِّ أَدْنَاسِ[31]

فكان للمكانَيْنِ اعتبار خاص بالنسبة للشاعرَين، وإن كان لكل منهما بُعدا روحيا، إلا أن وُرودهما في بناء القصائد يحمل بعدا انتمائيا خاصا.

وإذا انعطفنا إلى قصائد الشيخ أحمد بمب نجد هذه القيمة الروحية القدسية حين يحن إلى المرابع المقدسة (مكة- المدينة)، لتعلق قلبه بهذه الأمكنة، فيستنشق منها الملاذ الروحي بجوار سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم، لذا بقي الشاعر يحن إليه، وكان لهذا الحنين دويه الشديد، حيث إن الشاعر لم يتمكن من زيارة تلك الديار المقدسة، فبقي قلبه متعلقا بها:

ذَاكَ المَلَاذُ الذِي أَرْجُو النَّجَاةَ بِهِ دُنْيَا وَأُخْرَى فَلَيْتِي حَوْلَهُ جَارُ

وَهْوَ الذِي عِيقَ جِسْمِي عَنْ زِيَارَتِهِ لَكِنْ لِسَانِي لَهُ كَالْقَلْبِ زَوَّارُ[32]

فهذه الأبيات أنينُ قلبٍ ودمعة شوق، ورسالة حب، إلى مهبط الوحي، حيث الملاذ الروحي، بجوار الحبيب محمد- صلى الله عليه وسلم.

وإن كانت هذه الزيارة الواقعية ممتنعة، فإن هناك وسائل أخرى بمقدورها تحقيق رسالة روحية مملوءة بالحب والشوق إلى هذه المرابع المقدسة، حيث يقول:

يُبَشِّرُكَ البَاقِي بِخَطِّي كَرَامَةً وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ اَلمدِينَةِ ذَا نَأْيِ[33]

فقد أخذ الشيخ كل البدائل التي تقربه إلى تلك الأمكنة المقدسة التي يحنو إليه، وعبر ذلك في قوله:

مَنْ لِي بِرَوْضٍ حَرُونٍ كَيْ يَقُودَ إِلَى بَيْتٍ هُوَ البَيْتُ عِنْدَ اللهِ مُنْذُ بُنِ

بَيْتٌ دَعَانِيَ رَبِّي وَالخَلِيلُ مَعًا إِلَى زِيَارَتِهِ قِدْمًا مِنَ الزَّمَنِ

جُدْ لِي بِزَادٍ حَلَالٍ طَيِّبٍ مَلِكِي حَتَّى أُرَافِقَ مَنْ يَأْتُوهُ فِي السُّفُنِ

وَجُدْ بِصِحَّةِ جِسْمٍ وَاصْرِفَنْ هِمَمِي إِلَى زِيَارَتِهِ بِالرُّوحِ وَالبَدَنِ

وَلِلْمَدِينَةِ ذَاتِ النُّورِ مُنْذُ غَدَتْ دَارَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالفَرْضِ وَالسُّنَنِ[34]

في هذه الأبيات ينسج الشيخ أحمد بمب لوحة وجدانية عميقة، تتداخل فيها مشاعر الشوق، والانكسار، والتسليم، في سياق روحي يفيض بالحب الإلهي؛ فبينما هو يتمنى زيارة بيت الله الحرام، يقف في مفترق الطرق بين الأمل، والخذلان، بين الرغبة والقدر.

فالأبيات ليست مجرد تمن لزيارة بيت الله الحرام، بل هي تجسيد لحال العارف بالله الذي لم يكتب له الحج بالجسد، لكنه بلغه بالروح، وهذا يعلمنا أن النية الصادقة، والدمعة الخاشعة، والروح المتوهجة لله، قد تبلغ ما لا يبلغه الجسد، وهنا تتجلى روح التصوف، حيث لا يُقاس القرب من الله بالأقدام، بل بالقلوب المتوهجة، والنيات الصادقة، والدموع التي تنسكب من مقلٍ حزينة، لكنها راضية.

وهذا ما أكده في قوله وهو يدعو ربه قبول حجه القلبي الروحي:

حَجِّي بِقَلْبِي تَقَبَّلْ وَاكْفِنِي خَطَأً وَلْتَمْحُ شَيْنِي وَكَمِّلْنِي بِمَا زَانَا

رَبِّ اسْتَجِبْ وَلْتُكَمِّلْ مَا نَوَيْتُ لَدَى طُوبَى التِي بِكَ تُبْنَى فِيكَ بُنْيَانَا[35]

ويقول مقدِّما للمدينة المنورة تلك المنزلة القدسية:

لَا يَنْتَحِي المَدِينَةَ المُنَوَّرَهْ سُوءٌ حَمَاهَا ذُو بَقَاءٍ صَوَّرَهْ

أَكْرَمَ رَبُّ العَرْشِ ذَا المَدِينَهْ إِلَى جِنَانِهِ وَصَانَ دِينَهْ[36]

فالأبيات تجلٍّ لحال العاشق الذي يرى في المدينة المنورة مقاما أبديا، وبيتا للروح، وملاذا من كل ألم، فالمدينة – بالنسبة للشيخ أحمد بمب- ليست جغرافيا فحسب، بل هي حضرة، طوبى لمن قصدها بقلبه قبل قدمه، ففي كل بيت نلمس الوجد الصوفي، حيث تتحول المدينة إلى رمز للصفاء، والكرامة، والضمان الإلهي، فهي ليست فقط دار الهجرة، بل دار الطمأنينة، ومهبط الرحمة، ومأوى الأرواح التي تهفو إلى الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم-، فمنزلتها كما قال:

تِلْكَ المَدِينَةُ لاَ قَصْرٌ تُبَارِزُهَا بَلْ إِنَّهَا زِينَةُ الأَمْصَارِ وَالمُدُنِ

قَدِ اسْتَبَدَّتْ عَنِ البُلْدَانِ جُمْلَتِهَا بِالْمُصْطَفَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ فِي العَلَنِ[37]

4. الخاتمة:

من خلال هذه الرحلة البحثية وما تمخضت فيها من النفاذ إلى ذات الشاعر، والكشف عن تجليات حضور المكان في نفسيته التي فاضت بالقلق، والاغتراب، وجدل الهوية، نجد أن المكان ترك بصماته على الشاعر، وجعل ذاكرته تتغذى به، وتحوله إلى صورة شعرية، ومرجعيات حياتية، فالمكان لا يمثل في نفسه حيزا فارغا، بل فضاء للمقامات وأصواتها، وسياقاتها.

وقد توصل الباحث إلى جملة من النتائج، يمكن حصرها في الآتي:

- اكتسب المكان في شعر الشيخ أحمد بمب هويته من صدق مشاعره وعمق معاناته وشدة اغترابه، فغدا شخصية من شخصيات النص، حيث ظهر المكان ظهورا فنيا إبداعيا، مبني

على أسس متينة ذات أبعاد دلالية منبثقة من العمق الذاتي والنفسي والوجداني، نابعة من طبيعة تجربته الثرية التي أسهمت في تعميق الدلالة الكلية للنص.

- لجأ الشاعر إلى الرمز المكاني مستعينا بكل ما فيه من ملامح غنية ذات صور شعرية موحية، فاتخذ منه وسيلة ينفذ من خلالها إلى أعماق النفس البشرية، معبرا من خلاله عن آمال الإنسان وآلامه، مخاوفه واطمئنانه، واقعه وأحلامه، مازجا في براعة فنية فائقة.
- اتخذ اغتراب الشاعر أنماطا عدة؛ نفسي واجتماعي ومكاني وروحي، ويعد الاغتراب بصورتيه المكانية والروحية، من أبرز ما يميز المضمون الإنساني لإنتاج الشاعر.
- لم يكن المكان حدثا طارئا أو عاديا بالنسبة للشاعر، لكنه كان يمثل بعدا وجدانيا عاطفيا، وقوميا، ودينيا، ونتيجة هذه الأبعاد، اكتسب المكان دلالة رمزية، بعدما شحنه الشاعر بمعان ذاتية تعبر عن أحاسيس الحب والوفاء والولاء للأمكنة التي يعشقها.

إن المنافي (البحرية والبرية) تتحول في شعر الشيخ أحمد بمب من أماكن الاضطهاد إلى مقامات للتطهير الروحي، ويُعاد تشكيلها دلاليا لتصبح فضاء للثبات، والتسليم، والانتصار المعنوي.

الهوامش:

[1]- ريكان، إبراهيم، (1986م) الأسس الفنية للتجريب الشعري، مجلة الأقلام، العراق، العدد 11- 12، ص: 46.

[2]- ابن منظور، محمد بن مكرم، (1990م)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، مادة: (ك، و، ن).

[3]- ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص: 561، مادة: (م، ك، ن).

[4]- الفيروز آبادي، جمال الدين، (1998م)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، ج1، ص: 228، مادة: (مكن).

[5]- الزبيدي، محمد، (2007م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد المنعم خليل، وكريم سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج20، ص: 94.

[6]- مصطفى إبراهيم، وآخرون، (1960م)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: 326.

[7]- سور يس، الآية : 67.

[8]- بدوي، عبد الرحمن، (1979م)، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، ص: 199.

[9]- فهد، حسين، (2003م)، المكان في الرواية البحرينية، دار فراديس للنشر والتوزيع، المنامة، البحرين، ط1، ص: 55.

[10]- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (1994م)، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ج2، ص: 191.

[11]- يوسف، آمنة، (1997م)، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والطباعة والتوزيع، دمشق، ط1، ص: 25.

[12]- القرني، عبد الله، (2010م)، شعرية المكان في أعمال القصيبي الشعرية، مجلة العقيق، نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي، العدد 73/ 74، ص: 105.

[13]- باشلار، غاستون، (1987م)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، ص: 05.

[14]- إبراهيم، عبد الله، (1988م)، البناء الفني لرواية الحرب في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص: 343.

[15]- ولسن، كولن، (1972م)، الشعر والصوفية، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، دار الآداب، بيروت، ص: 117.

[16]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف، (نسخة الكترونية)، مراجعة: أبو مدين شعيب تياو، ص: 15.

[17]- النوري، فيس، (1979م)، الاغتراب- اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد10، العدد 01، أبريل- يونيو ص: 15.

[18]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة ألا إنني أثني (مخطوط).

[19]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة رضيت عن المولى (مخطوط).

[20]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، المصدر السابق.

[21]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة لرب غفور، (مخطوط).

[22]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة رضيت عن المولى، مصدر سابق.

[23]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة أيس مني الله (مخطوط).

[24]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مقيدة بحروف: (ولقد كرمنا بني آدم) (مخطوط)

[25]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، وسيلة الربوح في تذييل التوبة النصوح (مخطوط).

[26]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة رضيت عن المولى، (مخطوط).

[27]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة لرب غفور، (مخطوط).

[28]- أبو هيف، عبد الله، (2005م)، جماليات المكان في النقد العربي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سوريا، المجلد 27، العدد 01، ص: 44.

[29]- الخفاجي، زينب عبد الكريم، (2002م)، المكان في شعر الشريف الرضي، رسالة الماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ص: 43.

[30]- نياس، الخليفة الحاج محمد، ديوان الكبريت الأحمر، (مخطوط)، ص: 299.

[31]- المشعري، الشيخ إبراهيم جوب، (2017م)، ديوان المشعري، تحقيق: عبد القادر ميمونة الكبرى، وأبو مدين شعيب تياو، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، ص: 211.

[32]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة الرائية، (مخطوط)

[33]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مقدمات الأمداح في مزايا المفتاح، (مخطوط).

[34]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة: قد عاقني اليوم (مخطوط).

[35]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة ولقد كرمنا بني آدم، (مخطوط).

[36]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مطرزة بحروف (محمد رسول الله)، (مخطوط).

[37]- امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة: قد عاقني اليوم (مخطوط).

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

المصادر الأساسية:

1. امباكي، الشيخ أحمد بمب، جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف، (نسخة الكترونية)، مراجعة: أبو مدين شعيب تياو.
2. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة ألا إنني أثني (مخطوط).
3. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة الرائية، (مخطوط).
4. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة أيس مني الله (مخطوط).
5. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة رضيت عن المولى (مخطوط).
6. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة لرب غفور، (مخطوط).
7. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مطرزة بحروف (محمد رسول الله)، (مخطوط).
8. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مقدمات الأمداح في مزايا المفتاح، (مخطوط).
9. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة مقيدة بحروف: (ولقد كرمنا بني آدم) (مخطوط).
10. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة ولقد كرمنا بني آدم، (مخطوط).
11. امباكي، الشيخ أحمد بمب، قصيدة: قد عاقني اليوم (مخطوط).
12. امباكي، الشيخ أحمد بمب، وسيلة الربوح في تذييل التوبة النصوح (مخطوط).

المؤلفات:

1. إبراهيم، عبد الله، (1988م)، البناء الفني لرواية الحرب في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم، (1990م)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
3. باشلار، غاستون، (1987م)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط3.
4. بدوي، عبد الرحمن، (1979م)، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات للنشر والتوزيع، الكويت، ط1.
5. الزبيدي، محمد، (2007م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد المنعم خليل، وكريم سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
6. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (1994م)، الشركة العالمية للكتاب، بيروت.
7. فهد، حسين، (2003م)، المكان في الرواية البحرينية، دار فراديس للنشر والتوزيع، المنامة، البحرين.
8. الفيروز آبادي، جمال الدين، (1998م)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1.
9. المشعري، الشيخ إبراهيم جوب، (2017م)، ديوان المشعري، تحقيق: عبد القادر ميمونة الكبرى، وأبو مدين شعيب تياو، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1.
10. مصطفى إبراهيم، وآخرون، (1960م)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للنشر والتوزيع، القاهرة.
11. نياس، الخليفة الحاج محمد، ديوان الكبريت الأحمر، (مخطوط).
12. ولسن، كولن، (1972م)، الشعر والصوفية، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، دار الآداب، بيروت.
13. يوسف، آمنة، (1997م)، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار للنشر والطباعة والتوزيع، دمشق.

الأطروحات:

1. الخفاجي، زينب عبد الكريم، (2002م)، المكان في شعر الشريف الرضي، رسالة الماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد.

المقالات:

1. أبو هيف، عبد الله، (2005م)، جماليات المكان في النقد العربي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سوريا، المجلد 27، العدد 01.
2. ريكان، إبراهيم، (1986م) الأسس الفنية للتجريب الشعري، مجلة الأقلام، العراق، العدد 11- 12.

3. القرني، عبد الله، (2010م)، شعرية المكان في أعمال القصيبي الشعرية، مجلة العقيق، نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي، العدد 73/ 74.
4. النوري، فيس، (1979م)، الاغتراب- اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد10، العدد 01، أبريل- يونيو.